

 نجوت من من الهلاك

الفصل الأول

( انقلبت جحيماً )

( 1 )

عائد إلى البيت بعد دوام أثقل كاهلي، أصحو فجراً ولا أعود إلا قبيل ظهور الخيط الأسود بقليل، ذاهب في طريق بعربتي الصغيرة المكافحة ولونها الشاحب الذي لا تستطيع تميز لونها أهو أبيض أم ذهبي، إذ لا تستطيع التمييز من حرارة جو " ..." هذه البلدة اللعينة ، حيث السكان يظهر فيهم التذمر والعزلة ولا يحتاجون للتحدث مع أحد غير أفكارهم التي تدور داخل أدمغتهم وينظرون لك وكأنك سلبت من حقهم شيئاً .

أذهب إلى محل بالقرب من بيتنا وأشتري بها ماء يبل ريقي وعبوة من السجائر وكيسي خبر ذاهبٌ بهما إلى البيت، حيث تطهو أمي كل ما لديها من خبرات ومهارات لتسعدني، فأنا من بقيت بدنيتها بعد أنا تركت دراستي في أولى مراحل الثانوية لخدمها وأظل تحت رعايتها ، وإذا بي أدخل باب العمارة الصادئ المزخرف بألوان السنين الحالكة التي تسربت فيه معالم الشيخوخة، فلولا أنه أتى قبلي في هذه الحياة إلا لكنت مزقته قطع صغيرة وأظهرت ما بي من كمادة عليه من جعل يدي متسختين كلما أمسكته دون أن أضع المنديل بباطن يدي .. أصعد بالسلم دورين وأمام ملجئ الصغير، ليس الشقة بل أمي تنتظرني بفارغ الصبر لكي أعود سالماً، وترشي علي مذ أن أمسكت يدها الباردتان التي لم يبقى منها إلا رفات من العظام يكسوها جلده المتسع، وترش علي من حنانها ثم ادخل البيت، وإذا بها كل يوم أكل جديد لا أعلم كيف تأتي به رغم أني لا أستطيع تسديد فاتورة الكهرباء.

أظل مستغرباً وشاك ولكن لا يطمئنني شيء سوى أن أرى فيها راحة بعينيها وتقول لي "كل شي لا يزال بخير" ، وأنا أكل لا يساورني حديث إلى والمؤذن ينادينا للصلاة ، فأكمل ما تبقلي لي من لقمة أشتهيها وأذهب ..

تحت هذه الأرض الطيبة أخرج كل طاقتي السلبية، فالإمام يسمعنا صوتاً لا توصف روعة ، أقضي صلاتي وإذا ببائع الحلوى الخمسيني صاحب العربة الزرقاء يصافحني ويأخذني بحظنه ولا يمتلك في دنياه إلا عربته وفراش من حصير، أقابل حظنه بتربيت ع كتفيه وكأنها فاقد حنان أبناءه، فمشكلة هذه المدينة أن الجميع لا يأمن أحد إلا من عاش معه بأس حالاته ..

لا يخبرني "سعيد" ذو الوجه الحزين عن سبب حظنه لي لكما رأني إلا أن يقول لي "كم أرى فيك منه" ويمسحه دمعتيه ويذهب، تجارته غير مربحة لا يفاديه الخسائر إلا أنا و"ناصر" في العمارة المقابلة لنا، فآخر الشهر أكون قد حصدت ثمار ما عملت وأعطي أمي المال لتعطي صاحب العمارة "حسن" لبيقنا بنفس السعر ما دمنا لسنا متأخرين، فالدين في هذه البلدة مقصوصاً جناحاه، نسمعه ولا نراه، ويبقينا صامدين أمام عقبات حياتنا بتعلق بالله فقط، فهو الملجئ والباب الوحيد الذي لا يوصد أمام الضعفاء والطبقة الكدحة أمثالنا، أما أصحاب الأموال فهم عكسنا تماماً فهم يصنعون الدين بأمزجتهم وفكرهم الذي يعتقدونه، لا كما يعتقده النبي الأمي (صلى الله عليه وسلم) ويظهرونها بشتى الطرق، في الإعلانات في الدعايات فيظهرون على التلفاز أنا الدنيا لازالت بخير فقط عليك أن تبتسم وترضى بواقعك المرير.

حتى بأوقاتنا راحتنا نفتح التلفاز وإذا بالمهرجين أمامنا يتقمصون أدوار الضعفاء وأخرين يظهرون واقعنا بألبستنا وهمومنا لكنهم مقابل ذلك يأخذون المال، منا بطريقة أخرى.

لا يسعني في يومٍ واحدٍ إجازة طيلة أسبوع كامل إلا أن أبقى أمام التلفاز أشاهد الكاذبين، أو أنني أذهب إلى محل القهوة حيث أرى أصحاب المعاناة ينطقون أمامي بصدق عن معانتهم، لا تغطي وجههم المكياج ولا تخبأ ملامحهم الفواصال والدعايات، وكل واحد من مجتمعنا المتدني لا يشغل تفكيره إلا ما يملئ بطنه ويسد جوع أطفاله وزوجته، فتكثر المشاكل بسبب المشاكل وأسمع ع الراديو صوت مذيع يقول " كنت مثل حالكم إلا أنني أصررت على التغيير وأنتم أصررتم على المكوث على ما أنتم عليه"

اختلف مع هذا الحقير بقوله السابق، فب"العامرية" لا شيء يسيير بالقانون إلا ما يريدونه أصحاب الأموال أن يسيير، وإذا أرادوه فهو في الغالب يشكل لصالحهم .

أمام الشارع المكتظ بأصحاب العربات من الباعة والمشترين أتت السيارة الضخمة وما يسمونها أصحاب العربات "اللعنة" فيأتي أربعة رجال ضخام وشداد يأخذون الأخضر واليابس ويحطمون العربات ويأخذون السلع والحرف ومائدة طويلة من من الأطعمة ، وحالة من جنون البقر أصابت سكان هذا الحيء ولعنات تتساقط على أصحاب السيارة وبكى يجتاح الحريم والأطفال معاً، فتلك تصرخ وتقول "دعونا وشأننا" والطفل يبكي لصراخ أزعجه ..

مع أن مهنتي يضيع نصف يومي بها إلا أنها أفضل الموجود ولم أكن أستطيع الدخول لولا رأيت رجال الأعمال "يوسف" لي وهو من أكبر تجار هذه المدينة وأنا ألحن قصيدة كنت تقولها لي أمي وأنا صغير فأعجبي بي فبدل من أن يصدر لي ألبوماً أو ما شابه جعلني سكرتير في إحدى مكاتبه شمال "العامرية" .

( 2 )

كان ذلك بعد أن تركت دراستي بشهرين، بعد تكري للدراسة عملت عندي عمي "أحمد" صاحب القهوة أسفل العمارة التي نقطن بها .

كان عمي غير طامعٍ لي، لولا علاقة أمي الجيدة به، ومن بعدها أتى رجل الأعمال "يوسف" وكان وقتها يود أن يكمل برنامج يتحدث عن الفقراء وأحوالهم، في جلسة التصوير تلك طلب مني عمي بأن أحضر كأسيين من الشاي لتشريف "يوسف" محله وقبوله بشرب كأس من الشاي.

كان التجمع في المدينة هائل، وكان الجميع ينظرون إليه نظرة إعجاب وأعينهم شاخصة ، ذهبت لأعد الشاي وإذا بي أحضر الشاي مع أني لا أجيد عمله لأن عملي مع عمي "أحمد" كان مرتبط بالتنظيف فقط .

أحضرت لهم الشاي وكان مذاقه شيء جداً وكان عمي يرمق لي بنظرات الحقد وكتم الغيض فرشف "يوسف" رشفة من الشاي ولم يتظاهر بأنه لم يعجبه بل قال

"من فعل هذا الكأس"

قلت "أنا"

تبسم وقال اقترب مني " جلست واقتربت فهمس لي بأذني "إن الشاي مذاقه شيء سيء جداً، فبماذا تعوضني"

 قلت له وأنا أتنفس الصعداء بعد تردد : "سأغني لك"

قال : قبلت ذلك

فبدأت أغني الأغنية التي لا أحفظ غيرها،،، بعد أن إنتهيت .

نظر إلي وقال: من أنت ؟

قلت : أنا إبراهيم

قال : مواليد سنة كم ؟

قلت : قلت 1984 .

تبسم وقال : صوتك جميل جداً ي إبراهيم ، قلي ( تود أن تصبح مثل من؟)

نظرت عمي إلي فرفع حاجبه الأيسر وأومئ بالإشارة إلى "يوسف"

قلت : أنت سيدي .

ضحك وجسده الضخم يهتز ، رفع قبعته وألبسني إياها وأمسك بيده كتفاي وقال لي : لا لا ، لا أقبل بتلك الإجابة ، قلي بصدق .

بدأ عمي قلل مني وحرك رأسه يمنة ويسرة وعيناه شاخصتان صوب بؤبؤة عيني .

قلت بخوف شديد : عبدالحليم حافظ ..

ضحك بصوت عالٍ ولكني لم أفكر به، كل ما يشغل بالي ذلك الوقت هو عمي لأنه هو مدير عملي ، رأيت عمي ضحك .

فقال لي يوسف: بما أنك أجبتني بصدق فهل تقبل مني أن أعطيك مكافأة.

قلت : كثر خيرك ، سلمت .

قال يوسف: قلي ماذا تريد أن تعمل؟

نظر لي عمي نظرة المتفاجئ المستغرب وكيف اقتنع بي ذلك الرجل الهامة الذي لم أرى بحياتي إلى أنا بلغت العشرين عام مثله .

قلت له : الذي يأتي منك تأكد أنه لن يرد .

ضحك وقال : حسناً .

فصافحة وبعدها بربع ساعة غادر "يوسف" وكنت أنتظر إتصاله بفارغ الصبر، وكلما يشغل بالي ذلك الوقت، هو أن أجمع مالاً لأشتري بدلة ، لعله يعطيني منصب أو ما شابه ، لأنه بعد ذاهب "يوسف" كان عمي غاضب وطردني من المحل مع أني نلت إعجابه، لم أكن أعلم سبب غضبه لكني ما كنت مكترثاً لهذا الأمر، جمعت ما يقارب 80 جنيه من أعمال حرة قمت بها، وأقصد بالأعمال الحرة هو تنظيف العمارة التي يقطن فيها الدكتور ناصر هو وأبناءه "أحمد" ابن الخمس وعشرين و"يحيى" ابن الثامنة عشرة ، وتنظيف مطبخ مطعم "سليم" في الجهة اليسرى من عمارتنا .

كان عملاً شاق لكني كنت مقائلاً فجمعت 50 جنيه فعدت إلى البيت وقلت محاكياً نفسي "سأكمل غداً المئة لابد من فعل ذلك" وأنا صاعد في نهاية درجات شوطي الثاني من العمارة كانت أمي بانتظاري هي وأختي "زينب" ابنة الخمس عشرة ربيعاً "ونجلاء" ابنة الاثنى عشر ربيعاً . وكنت محضر خبز وكريّات من اللحم المفضلة عند أمي ، كان يعجبها طبخ "سليم" صاحب مطعم صغير في ركن عمارتنا يساراً .

أعطتني أمي قبيل أن أنام 30 جنيهاً وقالت : (لعلها تفيء بالغرض لكي لا تتعب نفسك غداً)

تساورني تلك اللحظة شعور يملئ جسدي إعجاب بأجمل قلب يمكن أن أراه في حياتي.

 قلت لها : ( تفيء بالغرض !! ، كل شيء منك يفيء بالغرض )

قبلت جبينه وحظنة رأسها لوهلة ثم قلت لها : ( تصبحين على خير).

رقدت، قمت في صباح ذلك اليوم وكنت ذاهب في التكتك لأوصل أخواتي للمدرسة توقفت قليل لأشتري لهم ما يمكنهم أن يصبحوا مثل بنات مدرستهم .

عائد للبيت لأكمل نومي رن هاتفي برقم غريب، عرفت من هوه قبل أن أجيب رددت على الهاتف وإذا بشخص يكلمني ويقول بلهجة عجلة : ( أأنت إبراهيم مرتضى؟)

قلت بلهف : (نعم أنا هو .. من معي؟)

قال : ( نحن مكتب الدكتور يوسف المنوفي ، لو تكرمت بحظورك وإتيان أوراقك الرسمية للعمل في المكتب)

لم أكن احاول أن أكون ثقيلاً فأقول له : ( وما هو العمل ؟) بل قلت : ( نعم ولكن أين المكتب)

قاطع قائلاً: ( كنت سأعلمك ، نحن أم قسم شرطة الدخيلة )

قلت : ( نعم سأكون هناك في السابعة مساءاً )

ذهبت في ذلك الميعاد بالوقت المحدد ولكني كنت أتوقع بأن أرى الدكتور يوسف مرة أخرى، دخلت المكتب إذ سمح لي صاحب المكتب ولم ينظر الي حتى.

جلست وكنت واضعاً منديلاً بأنفي من رأحة المكتب النتنة ، ونظرت للرجل وإذا هو بتصبب عرقاً من شعر رأسه المهمش وفاتحاً أعالي صدره حتى بداية كرشة وقال لي : (إذا هل أتيت بأوراقك ؟)

قلت له بذهول : نعم أتيت بها كما طلبت.

قمدتها له فكان كلما أراد أن يفتح صفحة يلعق إبهامه ويضعها طرف الورقة، وهلم جرا في بقية الملف .

فقال لي : جيد ، من غدا سيكون مرتبك بدلاً من 250 جنيه سيكون 500

ستعمل في مساعدتي في ترتيب المستندات ، تفضل يرمي الملف إلى طرف الطاولة .

بعدها أدرت ظهري فقال : بالمناسبة اسمي عباس ، ويتابع كتابته في حاسوبه المكتبي القديم ونفسه الأشبه ما يكون بلحمية سدة أنفه .

خرجت من المكتب راجعاً البيت وكل من طموحاتي رميتها خارج عالمي، إذا اعترضلي لي زعيم العصابة "شهاب" هو رفقته الجالسين في قهوة عمي ينظرون إلي وهم يسخرون فيقول "شهاب" : مأخبارك أيوه المغني؟ هل أعطوك مكتب خاصاً بك لاستقبال المكاملة وإحياء الحفلات أم ما زلت تمحس الطاولات ؟

يضحك "شهاب" ويضحك القطيع معه ويتابعون تشيشهم وتسامرهم مع بعضهم بطاولة النرد ولعبة الورق ورمقت نظرة لعمي وهو يبتسم إليهم ابتسامة صفراء ويقول: هل ستدفعون الحساب أما ماذا؟

"شهاب" ينظر لعمي مخرج بصره ومشخص عينيه في عيني عمي وينظر إلى قطيعه وكأن أمر مستحيلاً قد وقع الآن ويقول : ندفع هل تريد أن نأخذ ما حصدت من مال هذا اليوم أما ماذا؟

يرمي "شهاب" ذو الوجه المكفهر وشفته السفلية المتدلدة والمسودة من كثرت ما يرهقها ويلوثها بالشيشية والسيجارة ، يرمي رأس الشيشية أرضاً ويمسك طرف الطاولة بيده ويدفعها أمام عمي بصرخة منه ، يتراجع عمي خطوتين إلى الوراء ويقول: حساب!! ماذا تقول ي أحمق ، يقترب من عمي ويمسك طرفي شماغ عمي الأخضر ويقول له : سأشده بأقوى ما لدي المرة المقبلة .. ويقرب وجهه ويلتحم أنفه بالقرب من أنف عمي ويقول ( إن كررت هذا) يضرب ظاهر كفه الأيمن بصدري عمي الأيسر ويأمر القطيع بمكان آخر يذهب إليه.

لطالما كنت منذ صغري معجباً به ورأى فيه شخصية القيادة والمرح والمال . ولطالما كان أبي يضربني بشدة إن حاولت الاقتراب منه .. اليوم أدركت كثيراً مما كان يحذرني إياه أبي .

ذاهبت إلى عمي وقلت له : (لا بأس ي عمي، ورفعت معصمي بدلتي الأغلى ثمناً منذ ولادتي وحملت الطاولة وإذا بعمي يقول لي بازدراء ، وكأنني أطلب منه فضلاً أو ما شابه : لماذا تفعل هذا؟

هل تظن بأني سأرجعك للعمل بعد أن تم ترطدك من مكتب "الدكتور يوسف" ؟

تبسمت ابتسامة لم تبدي بها نواذجي ، قلت: بل قبلت بضعف المرتب ؟

وماذا أصبحت تعمل؟ ممسح للأراض بدلاً من الطاولات ؟

قلت له وأنا أنزل معصمي : أشكرك على لطفك عمي، قبلت جبهينة ثم تابعت .

ذهبت إلى الشقة وأخبرت أمي بما حصل فأظهرت لها فرحاً ففرحت، ولو أظهرت لها حزنناً لحزنت وفعلت ما تستطيع أن تفعله، لأنه لم يبقى لها من الدنيا سواي أنا وأخواتي بعد وفاة والدي حينما كنت في السادسة عشر من عمري.

( 3 )

كانت آخر نصائح أبي "إسماعيل "هي بأن انتبه من الرفاق الذين أماشيهم وأن احذر من ما أتمنى وهو في آخر حياته في صراع مع المرض آخر ثلاثة أعوام .

بكيت يومها ولم أرقد إلى عنوةً ... شعرت وقتها أن لا مكان لي في هذا العالم البتة سوى غرفتي الشبيهة بصندوق مستطيل صغير . لايسعني فيها إلى جسدي إلى أن بلغت العشرين .

لا أصحو من منبه يرن هاتفي، بل أصحو من نور الشمس الساطع من نافذتي الخشبية ..ألقي بوجهي في الجهة الأخر فأرى هاتفي يهتز وأنواع من اللعنات تصيبني من "عباس" .

وها أنا اليوم في الرابعة والعشرين من عمري ومستقبل دراستي قد تحطم ولا مكان لي سوى ذلك المكتب الصغير الذي أعمل فيه مع حيوان تشبه بإنسان في خِلقته .

في يومٍ ما حاولت مخالفة الروتين الاعتيادي فأمرني "عباس" بأن أحضر له طعاماً نظرت له وعيني مليئة بالكراهية "سيكون جاهزاً"

قاطع كلامي بهشهشة منه وقال : لا أود أن أسمع بعد أوامري كلامات .

زاد الاحتقان في صدري عليه، فإما الرضوخ والسكوت لهذا الخنزير أن يكمل ويرمي إهانته علي أو برحة ضرباً ، فلو أبرحته ضرباً فسيكون نهاية المطاف بي كتلك العربات المكسرة في شارعنا الشعبي ليلة البارحة .

تابعت طريقي وذهبت لأحضر ما يملئ بطن "عباس"، وعدت بعد ذلك لوجهه المكروب أحاول إخراج قسمته من الطعام جرّ الكيس من يدي، ونفذ صبري وأمسكت عنقه بيدي العارتين محاولاً قتله لكني أخاف على أمي وأخواتي أفتله وقلت له وهو مذعور : لقد استحملتك طيلة أربعة أعوام وأنت ترفض قوتك علي لأن الدكتور "يوسف" يشد عليك ، لكن اسمعني جيداً ، سأذهب الآن للبيت ولكن إن أتيت غداً ووجدتك حركت ساكناً من من طاولتي هذه أو أخبرت "يوسف" بما حصل، سأقتلك بيدي العارتين، اقتربت منه وانا أرى عيناه مفجعتان ووضعت يدي مقبضتين فوق طاولته وتابعة قائلاً : ( أأكد لك أنه لا يعبئ بك أبداً، لكن إن أعلمته ... ستندم وسأظل كالشبح وراك أطاردك )

خرجت من المكتب وكلي رعب في داخلي لأني وضعت وظيفتي في خطر ، ولكني ما زلت أملئ فيهي بالقول : ( لقد عملت الفعل الصائب ي إبراهيم لا تكترث لأمره ) .

إما أن نتنازل عن أبسط حقوقناً التي أصبحت ضرورية في مكان عشنا فيها نظل نرغم أن نفوسنا على الصمود أمام حقير يحتقرنا ، أو نقطع زمام بوقف ذلك بالأسلوب الذي نراه مناسباً .

عائدٌ في ظهيرة ذلك اليوم لأحضر أخواتي من مدرستهم، كنت انتظر خروج "زينب" لآاخر أيامها في الثانوية .. كان يومها أشبه بحمل أزالته عن عاتقيها، عندما خرجت من بوابة الخروج رأيتها تحظن صديقتها "مريم" وحاولت أن تجلس عند البوابة لكني ضغط زناد النجاة بأن هلمي بالركوب معي ، أتت وهي مبتسمة وحزينة بعض الشيء لفقدها أصدقائها حركت عربتي متجاهاً لمدرسة "العامرية الإعدادية" وأنا في طريقي لها نظرت إلى أختي وهي تبدو تعبة وسارحة ، نظرت إلي بلحمة من عينها اليسرى ثم أعادت النظر فوجدتني أراها وأنا مبتسم، أرجعت رأسها للخلف وقال : ما بك تنظر إلي هكذا ؟ لقد أخفتني .

فقلت لها : سأفعل لك شيئاً لكن في المقابل تعديني بأن لا تخبري والدتي بذلك .. اتفقنا ؟

قالت : نعم اتفقنا . أخبرني ماذا ؟

قلت لها : سأرجعك إلى صاحبتك مريم يبدو أنها لن تذهب مبكراً إلى بيتها، وسأصحب "نجلاء" للبيت وبعها أعود لك . اتفقنا ؟

قالت وهي فرحة جداً : حسناً .

يظل في وجداننا حزن نتوقع أن لا أحد من البشر من الممكن أن يحس به أو يشعر بما نشعر نحن به .. لكن يتبين عكس ما نظن بعض الأحيان ،، فهناك من مروا بحزنك كما لو أنهم تفادوا بأن لا يوقعوا به ولا أن يوقعوا أحد به أيضاً .

أحست أختي "زينب" بأني أحس بمشاعرها لأني اصطحبتها بنظراتها إلي وقت العشاء وإتيانه كوب ماء لي دون أن أطلب بعكس المتوقع .

وفي يومي التالي ذهبت إلى العمل مترددن هل أدخل عاري اليدين دون أن أعطيه هدية أو ما شابه فقررت أن أشتري له فطوراً يعجبه، وإذا بي أدفع الجهة اليمنى من باب المكتب الزجاجي المملوء بالغباش والصدى المنتشر في حوافه .

وجدته جالساً باحترام وللمرة الأولى أرى رائحة المكتب ورد ومكتب البني الصغير مرتب وكوب من الشاي ينتظرني ، نظرت إليه وزالت عني الشكوك التي كانت في ليلة البارحة ، تقدمت له وبدأت بالمصافحة فقام ولي وابتسم ابتسامة صفراء فناولت كيسي من بعد المصافحة يدي اليمنى لأقدمه له .. ابتسم بارتفاع وجنته اليمنى ونظر إلي داعياً شكره لي .

جلست في المقعد وكان يوماً مبهجاً أنجزت فيه المستندات قبيل ظهيرة ذلك اليوم ، حاول "عباس" أن يعزمني على الغداء بلكنة أشبه ما تكون "مجازية لا حقيقية" وكنت ذلك الوقت أود زيارة عمتي "سلوى" التي لطالما أحببت لقياها منذ أن توفى والدي، فكان دوماً يجعلني مرافقاً له لأعلب مع أبناءها "حسام" ذو الثالث والعشرين من عمره و "ريم" التي تصغره بثلاث أعوام .

صاعدٌ إلى العمارة الخضراء البالية التي تقطن فيها عمتي بدورها الثاني الظاهرة على شارع " ........." ، حيث الإيجار غير ثابت البتة، لا يقل بل يرتفع أو يثبت .

طارق باب شقتها الخشبي الذي نسيت ملامحه تماماً طيلة الأربع سنوات الأخيرة التي لم أزرهما فيها ، يفتح الباب زوج عمتي "هاني" رجع فجأة رأسه إلى الخلف قليلاً ورمش رمشتين ثم دنى رأسه إلي ليتذكرني جيداً متعجباً اختلاف ملامحي منذ آخر مرة رأيتهم فيها ، يتبسم بفجأة ومرحبا بيديه الضخمتين المتصلبتين حيث طبيعة عمله في البناء تستلزم ذلك مع جسدها الضخم مرحباً بي وسأل عن حال أمي وإخوتي ودوماً مع كل إجابة أغمض عيني ومأرجحاً رأسي للعلى وللأسفل "بخير هم بخير الحمد لله" دعاني للدخول ولم أرفض لإشتياق لرؤية عمتي وأصحاب طفولتي " جالساً على الأريكة العنّابية الأكبر حجماً في الصالة، متوسط إياها وخلف النفاذة حيث الجو في ذلك اليوم جيد بما فيه الكفاية، ذهب عمي بعد أن وضعني على الأريكة ليحضر مشروباً من المطبخ يساراً وأنا جالس فوق الأريكة ومقابل ذلك المطبخ الغرفة التي كنت ألعب بداخلها مع "ريم وحسام"، رغم أنها كانت غرفة "رغد" إلا أن دلال أبوها لها جعلنا راغبين في أن تكون غرفة تجمعاً منذ أن كان أبي يصطحبني تلك الأيام ، متخيلاً شكلها ومبتسمٌ لا شعوريا منذ أنا أطلع على بيت عمتي وزخرفاً حواف سقف تلك الصالة الذهبي ، إذ لا يزال بريقه موجود رغم تطول تلك المدة .

مسحت يدي الساخنتين من كثر الضغط عليهما بعد أن سلم علي "هاني" لأنه ظهر مني بعض الخجل طوال انقطاعي تلك السنوات الطوال وأنا أرى وجهه .

أزلت يداي عن عيني فقرب لي عمي عصيراً وقال لي تفضل سأنادي لك عمتك خلال دقيقة، قلت له : حسناً ، شكرا لك.

دخل في الغرفة اليمنى من مكان جلوسي حيث عمتي هناك ويقابلها بالعكس المجلس .

حاولت أن أقوم من مكاني لأجوال في ذلك البيت، فالحنين للطفولة لا يعادله حنين .

سمعت صوت نعليها وهمستها كن لطيفا يا "هاني"، في أول وقعة عين رأيتها فيها لم أشعر بحزن طولة مدة طويلة كمثل ذلك اليوم حتى أن فقدت السيطرة على حاجبيها الدقيقين صاعدين وومنشدين ونازلين .ترمق لي بنظرة وكأنني أحد أطفالها وتقول بعد أن أطالت النظر ووجهي بدأ شاحباً على ما أظن : لماذا كل تلك الفترة .

تقدمت خطوتين إلى الأمام لتبقى أمامي ميمنةً قليلاً وتمسك بيدها اليسرى طرف الكرسي الذهبي وتقول بعد مسح دمعتيها : أين كنتم أنت وإخوتك .

قاطعتها بأدب بالغ حيث أنها لم تكن تستطيع الاستمرار في الكلام بصوتها المتقطع : سامحيني ، فظروف الحياة جعلتني بعيداً عنك .

قالت لي مقاطعة بعد أن اعتدل صوتها : ظروف الحياة أم والدتك التي ..

قاطعتها : أرجوك لا تقولي هذا ، فلو علمت أني هنا ستزجرني بكلماتها الموبخة وسيغضب قلبها ، هل تريدن أن أقم قولك عليها ؟!! .

نظرت إليها بعد لحضة صمت وتقدمت إليها وحظنتها وقبلت رأسها ودام ذلك الحظن الدافئ قليلاٍ، إلا أن حمحمة "هاني" وهو جالسا يسار ما كنت أجلس، أي خلفي نوعاً ما .

أبعدت يدي عن ظهر عمت ي ووضعتها بين أذنيها ورفعت رأسها وقلت : أتيت لأصلح ما كان من المفترض أن يكون قبل فترة طويلة .

بدأت تستجيب كلامي وقالت برضى تام : حسناً. عد إلى ماكنك ودعنا نتحدث عن ما غابنا من أخبار طول فترة نسياننا .

أظهرت بعض الاستياء ، فلا يزال في القلوب نوعاً من التحامل على الطرف الآخر ، خصوصاً لو طالت المدة ، فازدياد القساوة في هذه الأمور لازدياد الزمن فيها .

قلت : لنكن على حياد معك ومع الوالدة، مع أنني ابنها لكني لا أنحاز إلى أحد ..

عمتي مقاطعةً وقاله بلكنة شرسة : بالطبع ي مدلل أمك، فبعد أن سخرت من كتابي الذي ألفته ذلك الوقت عن السلوك الصحيح في تربية الأبناء متظاهرة أن واقعي في تربية "ريم وحسام" سيئة وبائت بالفشل ، ستظر لها الأيام عكس ذلك تماماً .

قلت له بصوت خالٍ من العاطفة: وما الذي تريدن مني فعله ؟

هل تريدن أن نبقى هكذا ونعيد هذا النقاش بعد أربع سنوات أخرى ؟

يفتح باب الشقة ، إوإذا بها "ريم" وكنت في مزاجٍ سيء على ما يبدو أقفلته ثم استدارت وقالت : أهلا أبي أهلا أمي لقد عدت .

وبساعدها الأيسر شنطتها وكيس من الملابس بيدها الأخر ومفاتيح متصلة بين يديها ، كانت تحاول الذهاب لغرفة نوم أمها يساره ولكنها ولمحمتهم ونظرت إلي وإليهم ولم تأكد ترى أحد سواي وأمعنت النظر ، كأن عمتي وزوجاه غير موجودين في الغرفة .

كنت متوقعاً ردة فعلٍ إيجابية حال قدومي، لكن تبين العكس منذ أن أشخصة عينها وأطاحة بالكيس في الأرض وقالت : هل لا زال لديك ماء وجه أيه الفاشل القاطع .

ذهبت إلى غرفتها دون تحية لوالديها، قالت عمتي : ي رغد لا تفعل هذا هو لم يأتي لأجل ذلك بل ال..

ريم تصرخ وتقول وهي عائدة إلى أمها : أصمتي أرجوك يا أمي ولا تختلقي له حجة هو وأمه .

قامت عمتي وأمسكت بعضدها بشدة .

نظرت إليها باحتقان وقفت قائلاً : لا أريد أن يطول الانقطاع.

كان كلامي عكس نظراتي لها ، تحليت بصبر جيداً مع تعدي على ذلك مع "عباس"

قالت لي : تباً لك أيه القذر ، تريد أن تهين أمي مرة أخرى .

أمها تضع يدها اليسرى في فمها وتقول : أصمتي يا ريم هذا ليس أدباً ، ليس هذا ما اعتدته منك ، ذهبت "سلوى مصطحبة ريم لغرفتها.

سمعتها تقول : دعيها يخرج من هنا . لقد كنا معاً ثم اقفترنا بسبب أمه الشمطاء .

لم أستطع التحمل وقلت لعمي : أوسع لي طريقاً لأذهب .

قال عمي مهدئاً لي : اصبر قليل ، نريد أن نتفاهم أكثر .

قلت له : أرجوك عمي دعني أذهب .

قال حينها : حسناً ، لك ما تريد .

فتح لي الباب وقبل خروجي ربة بيده اليمنى على كتفي وقال : صحبتك السلامة .

رددت له بربيته أكثر لينة وخفة : وأنت كذلك .

نزلت إلى سيارتي ودخلتها وكنت قد رأيت مكالمة من أمي فائتة منذ ساعة نصف ساعة .

( 4 )

كلمتها وسألت أين أنا قلت : إني ذاهب لأتمشى قليل فلقد انتهيت مبكراً اليوم .

تصنع لكنة الهدوء بحرفية، فأنا أعرف متى تصطاد أمي مني عدم المصداقية فيها .

عدة من بدأ، ذهبت الى إلى عمي عصراً، حيث كانت ظهيرة مفجعة ومليئة بالأحداث .

وجلس وبيدي قهوة فأجمل منظر في هذه الحي بالنسبة إلي هو صخب أصحاب العرابات وأصواتهم بحثين عن رزق يشاطرونه لأطفالهم .

لكن السيارة اللعينة الذي تحمل أغراضهم ليست هي الوحيدة اللعينة ، ف "شهاب" يتسلط عليهم أكثر من ذلك بكثير ، فالحي ليس يعرف قانوناً في الدولة أو شرطة تقبض على اللصوص إلى بائعوا العربات ، فيأتون بعد التساسعة مساء حيث نهاية العمل وقلة الازداحم .

 يمسك أحدهم كتفي وألتفت إليه ، لم أصدق ما أراه بعيني ، أعز أصحابي منذ أن كنت في الثالثة إعدادياً ، رجل لا تعرف وجهه إلا الابتسامة، هو في الحقيقة لم أكن صديق يوماً واحد لـ "ماجد" بل كان هو من يحب مرافقتي وكلامي، جالساً على الكرسي أمامي وينظر إلي بدهشة ، وكأن نظراته تقول كنت أتوقع أنك في مكان مرموق أكثر من هذا، ولكني قلت له مسارعاً لألى يسأل عن حالي ، كيف هي دراستك ؟

قال : جيدة . لا بأس جيدة ، لكني أتيت إليك لأنني اليوم قد حصلت على درجة البكالوريس أنا و "رامي" زميلنا . أتذكره؟

قلت : نعم أذكره ، مبارك عليك ، بأي تخصص تخرجت ؟

ماجد: هندسة من جامعة القاهرة ، وأنت ؟

قاعطته وأخبرت مقدم القهوة أن يأتي بفنجاني .

قلت له : أنا لم أكمل الثانوية .

ماجد : ماذا ؟! أنت لم تكلم الثانوية ، ظننت أنك قد انتقلت من المدرسة فقط .

إبراهيم : كلا ، لم أفعل .

ماجد: لماذا لم تكلم ، لقد كنت أفضل الموجودين في ذلك الوقت .

إبراهيم بلهجة متضايقة ومتنرفزة : دعني لا أطيل معك ، والدي قد توفى ولا أحد غيري يمكن أن يعول الأسرة ، لذلك تركتها .

قرّب صاحب القهوة الفنجانين وكان "ماجد" مصدوم أو مستاء ، لا أعرف ما إن كانت شخصيته المرحة اللطيفة حينا كنا صغاراً باتت موجودو فيه أم لا ، لكن شخص مثله ثريٌ بفحش ، لا يكون له من تفاعله وحزنه شيء في قلبي .

فبت أكره الأثرياء ولا أكن لهم في قلبي إلا كرهاً .

قالي لي ماجد : وين تعمل الآن ؟

وأكملت ما تبقى لي من السيجارة في فمي وقمت ، وهو رافع رأسه منتظراً إجابتي .

إبراهيم : علي الذاهب للبيت ، سلام .

ماجد يرشف رشفته الأخيرة من القهوة ويتعبني وقد كنت مسرعاً في الهرولة ، ( إذا أعطني رقمك ) ، توقفت لوهلة ثم أخبرته : أظننت أني سكون مثلما كنت في صغري، لقد تركتني 7 أعوام لم تسأل عني وأنت ابن "سعيد" أثرى الرجالات في مصر كلها ؟!!

أنا اليوم أبلغ 25 عاماً لا أملك مالاً ولا بيتاً ولا زوجة .

بدأ ماجد ببذلته الزرقاء الداكنة الأنيقة وربطة عنقه التي لم أرى مثلها من قبل مستاءاً لحالي .

لففت وجهي ومشيت فقال لي وهو متوقفٌ مكانه : سأعطيك وظيفة .

صرعته بردي السريع وقلت له: دعها لك ، توقفت وقلت له ( أتتوقع أن هذا منّة منك علي ) .

ذهبت وكأن شيئاً ما سقط عن كاهلي ، في أشد لحضات حاجتي لمن يقف معي .

أعود للبيت وأخواتي يشتكين من حالهن وأنا أضجرهن وأسكتهن عنوّة وأقول لهم : ما الذي علي فعله ؟ لقد رعيتكم منذ أن كنت في التاسعة عشرة من عمري، مرت ثمان أعوام أكدح فيها من أجلكن لكي لا تكن إلا بنات شرف وعفة ، واليوم تلومنني ، ويحي ي رب ، ذهبت لغرفتي وأولعت سيجارتي لأشعر نفسي بأن من يخرج من فمي هو الكمد الذي بداخلي من خصومتي لأخوتي .

أنظر لحالي لبسي البالي ، لا أرى له لوناً سوء الهرم . وسريري بدأ يتصلب ويشيخ ، وحال هذا البيت هو حال قلبي تماماً ، عاش الكثير ولم يفيد أحد ممن سكنوه .

تحت سقف الدوما شمال "العامرية" كنت أسرح في الزجاج يساري لأرى الناس والباعة التي احترقت أجسادهم لطلب لقمت العيش ، والناس حولهم ذاهبون دون أن يروهم ، فلقد أصبحت قلوبهم لا تبالي بمن يجلسون على الرصيف لطلب لقمة العيش لكثرتهم ، فهم لا يفكرون إلا في حالهم .

وأنا أسرح بادلني "عباس" تلك النظرات على الشارع ونظرت إليه وعيناه أوشكتى على الدمع ، كنت صامتاً ، مرة أنظر للشارع وكأنه ينظر لشخص بعينه ومرة اظر إليه ، بادرني أسى منذ أن كان ينظر بحزن .

قال لي وقد مسح الدمع من عينيه : هل ي ترى سأسامح نفسي على ذلك ، ويحي ما أغبى هذا الكلام .

عاد لعمله وكنت صامتاً أنظر إليه وأعود لأرتب أوراقي من فوق طوالتي .

قام "عباس من مكانه وقال لي بأنه ذاهب ، سمحت هل بالعبور شريطتة أن يخبرني بما أثره فيه حينما نظر للمتسولين .

عاد بعد نصف ساعة وقد تحسنت حاله كثيراً وقاسمني سيجارة من علبته ، قلت له :إذا هل ارتحت قليلاً ؟

قال لي بارتياح وكان لتو قد جلس على كرسيه الذي يتعمد إخراج الصوت كلما جلس عليه "عباس" : نعم ، لقد ارتحت جيداً .

قلت له : هل ستخبرني أم ماذا ؟

قال لي وهو متغابي : بماذا ؟

قلت له وأنظر متعجب : بما أحزنك منذ أن رأيت المتوسلين مصفوفين هنا .

قال لي بعد تردد في عينيه : سأخبرك ولكن ..

قاطعته وقلت : نعم ، لن يعرف بذلك أحد ؟

قال لي بعد هدوء قليل : كنت ذات يوماً أمتلك عربة زرقاء مثل تلك التي تقطن في وسط المتسولين ، وكنت أصرف بها على والدّي ، كنت لا أملك سواها مكسب رزق ، وذات يوم تركتها أمام عربة بيتي بعد أن تذوق منها الدكتور يوسف ، كنت فرحاً حينها ، فقال لي وهو يأكل : هل أنت فرحاً بعملك هذا ؟!!

أبديت له عكس الواقع ، فقال لي : سأعطيك ضعف ما تكسب من عربتك هذه ، ما رأيك ؟!

وافقت حينها وكان أبي يحب تلك العربة ويعتبرها هي المصدر الأنسب في تلك الفترة .

أمسح دمعتيه وأنفه وقال : هذا كل شيء ، أطبق الملف الأخير من سجلات أعماله اليومية وقال : بأنه ذاهب ولن يعمل غداً .

لم تكلم حينها بكلمة وكل ما كان يدور ببالي هو ( من هو أبوه) ؟

الحياة في "العمرية لا تخلو من الجرائم ، فكما أخبرتكم سابقاً أن الشرطة لا تعرفه من عقود مضت ، فكان الحاكم هناك هو "شهاب" بعد منتصف العصر راودني اتصال من "أحمد" ابن الدكتور ناصر رددت عليه كان يتكلم بصوت مزعج وصراخ يعلوا المكان الذي هو فيه ويقول تعال الآن تعال الآن .

تركت كل ما بيدي وأشعلت الوقود بسيارتي الخضراء وذهبت ، كان منظراً مؤلم حين يمسك شهاب ب"أحمد" من أعلى قمصية الممزق ويخبأ "أحمد" أباه الدكتور العبقري ناصر خلفه لكبر سنة لا لجبنٍ فيه نزلت من السيارة وأخرجت الشفرة الحادة التي يحتفط بها أغلب رجالات هذه البلدة لحمياتهم استقبلني "شهاب بيديه الضخمتين القذرتين وأمعن النظر فيني وكان يصرخ ويقول وهو يمسك فيني: أنت التافه تدفعني أنت .

كان أشبه ما يكون بجريمة لن تغتفر بالنسبة له ، فقد أهنت الرأس الكبير من قطيع الخراف الذين يقفون خلفه ، لم أحرك ساكناً لأن نسبة رجاله ومن يقفون معي ليست متكافئة ، فالعصابات إن عملت معها وجب عليك التنازل عن كل شيء في حياتك ، أولها هي الكرامة ، ستظل تأكل وتنام ما دمت تحت سلطة الزعيم .

قبضة يدي الباردتين خوفاً من أن أتلقى لكمات منه ، ضربني " شهاب" بيه اليسرى صفعة لم أتلقى مثلها في حياتي ، شعرت بدوار وغضب ومن يمناه صفعة أسقطتني أرضاً فأعد وقوفي أحد رجاله "مصعب" الجثة النتنة المليئة بالشعر والعرق طلبت مساعدة "أحمد" و"يحيى" لكنهما لاذا بالفرار، فقد وضعوني ضحية أمام الملى وأم إخوتي ريوني من النافذة.

أمي تصرخ بأن دعوا ابني وشأنه ، لكنهم لم يرعونها إهتماماً لما تقول ، بدأت تكث الضرابات من "شهاب" فقلت له والدم يتساقط زخات زخات من رأسي : ( أرجوك دعني ) .

ضحك وقال : أنا من أقرر هذا .

تعالى صوت أمي وإخوتي من الأعلى .

نظر إليهم شهاب فدخلن إخوتي خوفاً على نفسهن ، ضحك ضحكة قذرة لم أفهم ما معانها ذلك الوقت ، فكل ما كان يهمن هو أن يطلق سراح ويدعني .

قال لي : هذه المرأة سأكتفي بهذا هذه المرأة ، لكن المرة القادمة لن يكون من وعودي شيء تراه ، لأنك ستكون ميتاً حينها .

ذهب شهاب وسقط على الأرض جلست أتحنن في الأرض طالباً النجدة لكن لا أحد يسمع ، الجميع موجود لكنهم لن يفعلوا شيئا خوفاً على حياتهم الللعينة المليئة بالضوضاء والقذارة والجهل والفقر المدقع.

تباعد الناس والكل ذهب لعمله ، كان عرضاً مذهلا ما فعلت أمام القوم ، أصبح اسم "إبراهيم إسماعيل " أضحوكة مشهورة في الحي .

ما عدت أطيق نفسي في تلك اللحظات ، تبا لضعفي ، كان ينبغي علي أن أكون أنشف وأقوى من هذا .

أتتني فتاة لم أعرف ماذا ومن تكون ، جميلة المنظر ، كانت تلبس فتسان رقيق يستر جسدها ، مليء بألوان الزهور ، كنت أرقبها وهي تقول لي : انهض انهض .

لم أقل شيئاً ولم أكن أود ذلك ، أتت أمي وإخوتي يحاولون حملي على عاتقهم وها أن ذا أصعد درج العمارة وقد انكسفت من جميل تلك الفتاة وجمالها قلت لها دون أن أرى بؤرة عينها : ( شكرا لصنيعك هذا أنا ... ) ، تقاطعه وهي متكئة بيدها اليسرى على حافة باب الشقة تقول : (لا بأس ، لكنك غريب فعلاً )

قلت له : أنا لا أستطيع التحدث كثيراً الآن لكن صدقيني أتشرف بك .. )

تقاطعه : لا عليك يا .... .

يقول لها : إبراهيم ، نعم إبراهيم إسماعيل .

قالت : نعم ، أنا جديدة في هذا الحي قليل ، هذا عامي الثاني .

قلت لها : مرحبا بك ، هذا عنوان شقتي إن أردت زيارة مرة أخرى فمرحب بك .

قالت له : شكراً ، إلى اللقاء .